محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي

١٢٩٧-١٣٢٥هـ/ ١٨٨٠-١٩٠٧م

د. نادية بنت وليد الدوسري

الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ١٠٣ص .

مراجعة: د. عوض البادي
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ما فتئت الدولة الروسية ومنذ عهد القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥م) آخذة بالتوسع في مجالاتها الحيوية الآسيوية والأوربية حتى أضحت إمبراطورية عظمى لها سياساتها الدولية الخاصة بها. ولم يأت القرن التاسع عشر إلا وقد أصبحت فاعلاً رئيسًا في السياسة الدولية، تشارك في المنافسات الدولية من خلال صنع الأحداث ومزاحمة نفوذ الدول الأخرى وجعل تنافسها معها آلية للتأثير والسيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، لاسيما خارج أوربا إذ كان التنافس في القارة الأوربية محكومًا بسياسة توازن القوى، تلك السياسة التي حكمت الوضع داخل أوربا، وكان أي إخلال بذلك التوازن سببًا لاندلاع الحرب فيما بين الدول الأوربية الكبرى. لذا كانت الإمبراطورية الروسية جزءًا من التحالفات والحروب والسياسات الأوربية.

وإذا كانت الدول الأوربية الكبرى تتنافس على مناطق النفوذ داخل مناطق سيطرة الدولة العثمانية وعبر البحار والمحيطات فإن سياسة روسيا التوسعية اختلفت إلى حد كبير عن تلك التي اتبعتها الدول

الأوربية الأخرى؛ فقد ركزت توسعها ومنذ عهد بطرس الأكبر على المناطق التي ترتبط بها جغرافيًا، ولم تتوقف عن توسعها إلا بالوقوف أمام حواجز طبيعية مثل: جبال پافير (في قرغيزستان و طاجيكستان) في توسعها جنوبًا أو المحيط الهادي في توسعها شرقًا أو بالاصطدام بدول قوية لا تملك القدرة على هزيمتها؛ مثل اليابان والصين والدولة العثمانية في بعض مراحلها، وهكذا لم تأت سنة ١٨٨٥م حتى سيطرت روسيا على منطقة تركستان الواسعة في جنوبها مكملة بذلك عملية ممتدة لبناء إمبراطورية عظمى استغرق بناؤها مئات السنين.

وإذا كانت روسيا تبني إمبراطوريتها وتؤدي دورها في السياسة الدولية من خلال المسرح الأوربي ومسرح الإمبراطورية العثمانية، فإنها لم تولِ خلال أغلب فترات القرن التاسع عشر كثير اهتمام بالمشرق العربي الذي كان جزءًا من الإمبراطورية العثمانية إلا بقدر ما يتعلق الأمر بالسياسات الأوربية تجاه الدولة العثمانية التي أصبحت الطرف الأضعف في المعادلات الدولية أو بقدر ما يتعلق بالارتباطات الدينية للروس في فلسطين أو الأماكن الدينية في المنطقة التي يعود الاهتمام الروسي بها إلى مرحلة تاريخية متقدمة عندما تم قبول المسيحية دينًا في روسيا سنة ٩٨٨م.

كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر فترة نمو في اهتمام روسيا بالمشرق العربي عامة وبالجزيرة العربية والخليج العربي خاصة.

ولكن ما الدوافع الروسية لهذا الاهتمام؟ وما الأهداف الدينية والتجارية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية لهذا الاهتمام؟ وما الوسائل والسياسات التي اتبعتها روسيا لتحقيق أهدافها؟

لا يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة إلا من خلال وضعها في السياق العام للسياسة الخارجية الروسية وأهدافها الاستراتيجية على جميع المستويات الدولية والإقليمية والوطنية الروسية؛ لذلك فإن قراءتي لهذه الدراسة ربما لا تكون عادلة؛ لأنها تنطلق من تصور أرى أنه هو المقارب الأفضل لتناول مثل هذا الموضوع وفهمه في سياقه الحقيقي، دون أن يعني ذلك عدم الاعتراف مسبقًا بأهمية العمل محل المراجعة لما احتواه من معلومات وأفكار وتحليلات للموضوع، ولكن في سياق آخر غير السياق الذي يفترض أن تتم الدراسة من خلاله.

فالكتاب الذي بين أيدينا، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه في التاريخ، يحاول - كما جاء من عنوانه - أن يرصد محاولات التوسع الروسي في منطقة الخليج العربي في الفترة الواقعة ما بين ١٢٩٧ - ١٣٢٥هـ/ ١٨٨٠ - ١٩٠٧م.

موضوعات الكتاب:

يحوي الكتاب مقدمة وتمهيدًا وخمسة فصول وخاتمة.

ففي المقدمة أوضحت الباحثة أهمية موضوع دراستها وأسباب اختيارها له والصعوبات التي واجهتها في جمع مادة الكتاب الوثائقية، لا سيما الوثائق الروسية غير المنشورة وكيفية حصولها عليها وترجمتها لبعض الوثائق ذات العلاقة، ثم أشارت إلى المراجع العربية والأجنبية من كتب ودراسات استفادت منها الباحثة.

وحيث إن المقدمة في هذا الكتاب هي بمثابة الإطار المنهجي والنظري للدراسة فإن ذلك لم يتحقق بأسلوب منهجي منتظم يتناول كل موضوع من الموضوعات التي تدخل في الإطار المنهجي والنظري

للدراسة مثل: مشكلة البحث وتساؤلاته وأهميته وأهدافه وحدوده الزمانية والمكانية والموضوعية، وتحليل أهم المصادر والأدبيات السابقة، وتقويم المصادر والمراجع ووصف منهج البحث وخطة البحث. ولأن هذه لم تأت في المقدمة بأسلوب منهجي مترابط فقد شابها القصور في جوانب عديدة؛ منها على سبيل المثال: أنها رصدت في المقدمة بعض عناوين كتب ودراسات دون أي تحليل لأهميتها أو تحديد لعلاقتها بالموضوع، وتجاهل هذا الأمر لو سارت عليه في تناولها لكل المصادر والمراجع، فإن بعض المصادر والمراجع لم تكتف الباحثة بذكر عنوانها إنما وصفتها، كما أن الباحثة تجاهلت كتابًا يعد من أهم الكتب التي تناولت الموضوع نفسه ضمن مصادرها في المقدمة وهو كتاب استفادت منه؛ لأنها رجعت إليه كثيرًا وعنوانه : "سفن روسية في الخليج العربي ١٨٩٩-١٩٠٣"، الصادر باللغة العربية من دار التقدم بموسكو ١٩٩٠م، وهو كتاب يضم بين دفتيه مقدمة وتمهيدًا شاملاً ومجموعة من التقارير والوثائق الروسية التي هي في صلب الموضوع.

بينما نجدها تذكر أنه تسنى لها الحصول على إحدى المخطوطات التي أفادتها في دراستها، وهي مخطوطة "عنوان السعد والمجد في بيان أحوال الحجاز ونجد" من تأليف عبدالرحمن بن ناصر، مع أنها لم ترجع إليها إلا مرة واحدة (ص ١٥٠) وبموضوع ليس له علاقة مباشرة بمحاولات التدخل الروسي في الخليج.

وحيث إن النقاط المشار إليها أعلاه مهمة جدًا لأطروحة علمية قُبل نشرها، وإن نشرها على شكل كتاب كان يتطلب الاستغناء عن هذه المقدمة بمقدمة تتضمن : هدف الدراسة مع خلفية عن الموضوع وعرض لفصول الكتاب فقط، فليس ضروريًا عندما تُنشر الأطروحات والرسائل الجامعية أن تأتي بشكلها الأصلي.

تنتقل الباحثة بعد المقدمة إلى التمهيد وهو عبارة عن "لمحة عن التنافس الدولي في الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين" على أساس أن الشرق الأدنى لم يصبح مجالاً للصراع السياسي والتغلغل الاقتصادي إلا منذ نهاية القرن التاسع عشر، وذلك بسبب الثورة الصناعية التي كانت السبب في ازدياد الإنتاج والسكان ورأس المال مما أدى إلى البحث عن أسواق جديدة ومواد خام ووقود، وأيد عاملة رخيصة، مما دفع إلى بناء الأساطيل والمحطات التجارية والقواعد العسكرية لحماية التجارة ومن ثم السيطرة على المستعمرات.

إن هذا المنطلق لتناول التنافس الدولي في منطقة الخليج في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لا يتسق مع الحقائق التاريخية التي تؤكد وجود التنافس قبل مرحلة الدراسة ومنذ فترات طويلة، وتكفي الإشارة إلى المحاولات البرتغالية والهولندية والإنجليزية والفرنسية السابقة. وعلى ذلك فإن التمهيد الذي يفترض أن يكون مدخلاً لتناول محاولات التدخل الروسي في الخليج خلال فترة الدراسة تناول المنافسات الدولية في الخليج خلال مرحلة الدراسة وليس المرحلة التي سبقتها، وكأن موضوع الدراسة هو التنافس الدولي على الخليج وليس محاولات التدخل الروسي، ولو افترضنا جدلاً أن ذلك هو الموضوع، فإن من المناسب أن يتحدث التمهيد عن المرحلة التي سبقت الحدود الزمانية للدراسة وعن الظروف التاريخية التي مهدت للتنافس الدولي في المرحلة المدروسة. وبما أن الموضوع عن : محاولات التدخل الروسي في الخليج خلال فترة الدراسة فكان من الأنسب أن يكون المدخل عن السياسة الخارجية الروسية وأهدافها خلال تلك المرحلة وبداية سياساتها الدولية الجديدة، ومنها محاولة التغلغل في المشرق العربي والخليج. إن مثل هذا التمهيد من شأنه أن يجعل هدف هذه الدراسة واضحًا منذ البداية ويتناسب مع موضوع الدراسة.

فمحاولات روسيا لإيجاد مواطئ قدم لها في الخليج يرتبط بأهداف سياستها الخارجية وتوسع مصالحها التجارية والاقتصادية وزيادة نفوذها في العالم. وهذا الموضوع يمكن تناوله بمعزل عن طبيعة المنافسة القائمة بين الدول الأوربية، فالمنافسة كانت نتيجة وجود مصالح لها في المناطق المختلفة من العالم وبغض النظر عما إذا كان هناك منافسة دولية فعلى سبيل المثال: إن روسيا بعد أن أصبح جزء كبير من سكانها من المسلمين، لاسيما بعد السيطرة على تركستان أصبح لها مصلحة في الحجاز؛ لأن عددًا من مسلميها يذهبون لتأدية فريضة الحج وبعضهم يقيمون في الحجاز، لذا نجدها تقيم قنصلية في جدة سنة ١٨٩١م.

بعد التمهيد جاء الفصل الأول بعنوان: "النفوذ الروسي في بلاد فارس"، تناولت الباحثة فيه طبيعة النشاطات الروسية في بلاد فارس السياسية والاقتصادية والعسكرية والنشاط الاجتماعي، متتبعة بشكل ممتاز طبيعة هذه النشاطات واضعة إياها في السياق المناسب، وذلك من خلال ربطها بالسياسة الخارجية الروسية تجاه فارس خلال حقب تاريخية تسبق الحدود الزمانية للدراسة وخلال فترة الدراسة، مؤكدة أن تنوع النشاطات الروسية في فارس ومؤسستها في المجالات كافة أدت إلى وقوع فارس تحت نفوذ روسيا، لذلك أوضحت الباحثة من خلال رصدها لتلك الأنشطة الروسية كيفية تحقيق روسيا لأهدافها في فارس.

وفي هذا الفصل أشارت الباحثة إلى أن الحكومة الروسية أولت العراق عناية خاصة، فكان افتتاح أول قنصلية روسية فيها، دون تحديد تاريخ. وما دام المجال كذلك فكيف تجاهلت الباحثة تناول هذا الموضوع في فصل خاص كما هو الحال في فارس وفي مناطق الخليج الأخرى؟ إن ذلك غير مسوغ علميًا على الإطلاق، وما كان موضوع محاولات التدخل الروسي في الخليج مكتملاً دون ذلك حتى

وإن وجدت إشارات متفرقة في ثنايا الفصل الخاص بفارس عن العراق.

أما في الفصل الثاني من الكتاب وهو "الاتصالات الروسية بمشيخات الخليج العربي وسلطنة مسقط" فقد تناول محاولات روسيا "السيطرة" على موانئ الخليج العربي، وتقصد هنا الباحثة الموانئ التابعة لفارس على الخليج مثل: بندر عباس ولنجة وبوشهر وبعض الجزر في الخليج وباتفاق مع الحكومة الفارسية، ولتأكيد هذا التوجه بدأت روسيا بإرسال سفن إلى الخليج ابتداء من عام ١٨٩٩م مما أثار الشكوك البريطانية في النوايا الروسية في الخليج مفسرة ذلك بأن هدفها ليس تجاريًا فحسب، مما أدى إلى مشادات دبلوماسية بين بريطانيا الساعية إلى أن يكون الخليج بحيرة مغلقة لها ولسفنها وتجارتها وبين روسيا التي أرادت تأكيد أن الخليج بحيرة دولية ليس حكرًا لأحد ولإيجاد منافذ لتجارتها ولنفوذها، وقد عرضت الباحثة لزيارات السفن الروسية في الخليج.

وحيث إن هذا الجزء من الفصل يتعلق بالموانئ والجزر التابعة لإيران، فإن من الأفضل لو كان جزءًا من الفصل الأول، وأن تكون المعلومات الخاصة بالمصالح التجارية بالعراق ضمن الفصل الخاص به، وهذا لم يتم لتجاهل الباحثة للوجود الروسي في العراق.

ثم تناولت الباحثة بعد ذلك زيارات المسؤولين الروس والبعثات العلمية والتجارية الروسية للخليج العربي عام ١٩٠٢م، ورصدت تحركات بعض المسؤولين والعلماء الروس الذين زاروا بعض مشيخات الخليج: قطر والبحرين والمحمرة ومسقط كما وضَّحت الأدوار التي قاموا بها.

ولأن الكويت استحوذت على حيز كبير من الاتصالات الروسية بمشيخات الخليج؛ فإن الباحثة خصصت الفصل الثالث من الكتاب

للحديث عن "النشاط الروسي في الكويت". وقد تركز النشاط الروسي في الكويت في مرحلته الأولى في محاولة الحصول على محطة وقود لتزويد سفنها بالفحم الحجري لأهمية مرفئها - وذلك عن طريق اتصالات قنصلها في بغداد بشيخ الكويت، ثم من خلال تقديم عروض اقتصادية منها إقامة خط حديدي إلى ميناء الكويت. ومن خلال اتصالات القناصل الروس في الخليج بشيخ الكويت وكذلك من خلال زيارات السفن الروسية التي كانت تجوب الخليج إلى الكويت فقد توثقت العلاقات إلى الدرجة التي جعلت روسيا تحتج على معاهدة الحماية البريطانية الموقعة مع الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت سنة ١٨٩٩م، ولدرجة إغرائه بعقد معاهدة معها سنة ١٩٠١م.

بسبب فشل الجهود الروسية في الكويت اتجهت روسيا إلى الاتصال بنجد

وبسبب فشل هذه الجهود الروسية في الكويت اتجهت روسيا إلى الاتصال بنجد. هذه الاتصالات هي موضوع الفصل الرابع الذي جاء بعنوان: "دور روسيا والقوى السياسية في نجد". وقد تناولت الباحثة في هذا الفصل بداية الاتصالات الروسية بنجد، بدءًا بعبدالعزيز بن متعب الرشيد، ومن ثم الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، والأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ومراحل تطور هذه الاتصالات، ولكن يتضح أن الاتصالات الروسية بنجد كانت ضعيفة جدًا ولم تتعدَّ تبادل الرسائل والاتصالات مع بعض القناصل الروس. وقد حللت الباحثة هذه الاتصالات جيدًا، ولكن تركيزها على الاتصالات مع بريطانيا أثناء تلك المرحلة كان أكثر مما هو مع روسيا.

وتناولت الباحثة في الفصل الخامس الأخير من الكتاب "الاتفاق الروسي البريطاني عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م" الذي كان بمثابة إعلان يوقف محاولات التدخل الروسي في الخليج؛ فبريطانيا التي وقفت

بكل قوة تجاه النشاط الروسي في فارس والخليج العربي، وجدت نفسها في موقف قوي بعد أن رأت روسيا تفقد بعض قوتها وتُهزم عام ١٩٠٤م في حربها مع اليابان التي كانت نتيجة التنافس القوي بين الدولتين في منطقتي كوريا ومنشوريا. هذا، ولاندلاع ثورة شعبية، وحدوث بعض المتغيرات الدولية والسياسية الداخلية في روسيا وبريطانيا عقد اتفاق بين الدولتين عام ١٩٠٧م يسوي الخلافات القائمة بينهما ويحدد مناطق نفوذهما. وحسب هذا الاتفاق تم تقسيم فارس إلى ثلاث مناطق نفوذ: منطقة روسية في شمال فارس، ومنطقة محايدة في وسطها، والمنطقة الثالثة إنجليزية في الجنوب، وهي المنطقة الواقعة على الخليج. وهكذا تم الاعتراف ضمنيًا بالخليج منطقة نفوذ إنجليزية.

خاتمة:

كما سبق وأشير في مقدمة هذه المراجعة، فإن هذه الدراسة عانت من عدم الدقة المنهجية وتحديد أهداف واضحة لها. لذا ورغم أن الدراسة في ثناياها تناولت المحاولات الروسية للتدخل في منطقة الخليج، إلا أنها تحدثت عن التنافس الدولي في الخليج أكثر مما هي عن المحاولات الروسية، فالتمهيد كان عن التنافس الدولي في أثناء الحدود الزمانية للدراسة، والخاتمة أيضًا كانت عن حسم أمر هذا التنافس بين بريطانيا وروسيا سنة ١٩٠٧م.

وكانت الفصول الأخرى للدراسة - عدا الفصل الأول - تتركز على موضوع التنافس الدولي أكثر مما هي حول محاولات التدخل الروسي على الرغم من رصدها وتحليلها، إلا أنها جاءت في سياق التنافس البريطاني - الروسي، مما أعطاها معاني أكثر مما تستحق، بينما لو تم تناوله من خلال سياقه الروسي إقليميًا ودوليًا ووطنيًا لما أخذ هذا المنحى الذي عظمته الباحثة، لا سيما في المشيخات الخليجية العربية بسبب اعتمادها على كثير من الوثائق الإنجليزية التي أعطت

المحاولات الروسية أبعادًا تختلف عن أهدافها الحقيقية لتخيف قيادات المنطقة.

لقد أتيح للباحثة حسب قائمة الوثائق الروسية التي رجعت إليها فرصة جيدة لتقدم إضافة جديدة حول موضوع التدخلات الروسية في الخليج من خلال الرؤية الروسية لتلك المحاولات وأهدافها وأبعادها ومن ثم تحليلها في ضوء الرؤى الأخرى.

ومع ذلك فإن الجهد المبذول في هذا الكتاب يستحق الثناء؛ فمحاولة رصد جميع محاولات التدخل الروسي في الخليج أثناء فترة الدراسة - على الرغم من توافر مصادر أولية تتناولها - كان بكرًا للحرث فيه، وقد حرصت الباحثة وقدمت دراسة أحسب أنها تضيف جديدًا في توضيح المحاولات الروسية لإيجاد موطئ قدم في الخليج العربي والتنافس البريطاني - الروسي على النفوذ في المنطقة.